٨- موت العلماء[١]

إنَّ الحَمْدَ لِله... أَمَّا بَعْدُ:

فَمَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إنَّ مِصداقَ التَّرابُطِ والتَّكاتُفِ بينَ أَفرادِ المُجتَمَعِ المُسلِمِ أَن يَحزَنَ المُسلِمُ لِحُزنِ أَخيهِ، ويَفرَحَ لِفَرَحِهِ، ويُشاركَ إخوانَهُ المُسلِمينَ شُعورَهُم، يتَأَلَّمُ لأَلَمِهِم، ويُؤمِّلُ لأَمَلِهِم، فَهذا الشُّعورُ والتَّجانُسُ تَرجَمَةٌ عَمَلِيَّةٌ لِذلِكَ الوَصفِ النَّبَوِيِّ البَليغِ: «**المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كَالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضاً**» أَخرَجَهُ الشَّيخانِ عَن أَبي مُوسى رَضِيَ اُلله تَعَالَى عَنه[٢]، وكَذا قَولُهُ ﷺ: «**المُؤمِنونَ كَرَجُلٍ واحِدٍ؛ إِن اشتَكَى رَأسُهُ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ**» أَخرَجَهُ مُسلِمٌ عَنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اُلله تَعَالَى عَنهُما[٣].

فتِلكَ الأوصافُ النَّبَويَّةُ لِمُجتَمَعِ المُسلِمينَ جامِعَةٌ لِحَقيقةِ التَّكاتُفِ والتَّرابُـطِ.

فَالبُنيانُ مُجتَمَعٌ فِي الجُملَةِ، ويَزدادُ اجتماعُهُ إذا كانَ مُتَراصّاً، وكَمالُ التَّراصِّ: أَن يَشُدَّ بَعضُهُ بَعضاً، والجَسَدُ المُسلِمُ كُلٌّ لاَ يَتَجَزَّأُ، يتَأَلَّمُ جَميعاً، ويتَنَعَّمُ جَميعاً، وَلِذا يَتَمَيَّزُ أَفرادُ المُجتَمَعِ المُسلِمِ عَن جَميعِ المُجتَمَعاتِ الأُخرى بِقُوَّةِ تَرابُطِهِم وتَكاتُفِهِم، فَلا طَبَقِيَّةَ ولاَ قَومِيَّةَ، بَل أَواصِرُ الدِّينِ وتَعالِيمُهُ.

---

(١) تقدمت في الجزء الأول بعنوان: «الوحدة الشعورية» وجرى هنا عليها إضافات لتناسب المقام، وأُلقيت في الجمعة التي صُلِّيَ فيها على سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز، جعل الله الفردوس الأعلى مثواه.

(٢) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٦).

كانت تِلكَ المَعالِمُ جَلِيَّةً واضِحَةً فِي مُجتَمَعِ الرَّعيلِ الأَوَّلِ، فَلَقد صَوَّرَ أَصحابُ النَّبِيِّ ﷺ أَروَعَ الأَمثِلَةِ فِي تَوَحُّدِ شُعورِهِم أَلَماً وأَمَلاً.

فَكانُوا خَيرَ أَفرادٍ لِخَيرِ مُجتَمَعٍ، يُؤثِرُ أَحدُهُم أَخاهُ بِشَطرِ مَالِهِ، ويُقاسِمُهُ بَيتَهُ، حتَّى بَلغَ الإِيثارُ أَوجَهُ فِي عَرضِ بعضِهِم نُزولَهُ عَن امرأَتِهِ لِيتَزَوَّجَها صاحِبُهُ بعدَ انقضاءِ عِدَّتِها.

بَل كانَ غائِبُهُم يُشارِكُ حاضِرَهُم فِي شُعورِهِم، يُصَدِّقُ ذَلِكَ قَولُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِن غَزوَةِ تَبُوكَ: «**إِنَّ بِالمَدينةِ أَقواماً ما سِرتُم مَسيراً وَلاَ قَطَعتُم وادِياً، إِلاَّ كانُوا مَعَكُم**» قالُوا: يَا رَسُول اِلله، وَهُم بِالمَدينةِ؟ قالَ: «**وَهُم بِالمَدينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذرُ**» أَخرَجَهُ البُخارِيُّ عَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اُلله تَعَالَى عَنه[1].

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَالأَمثِلَةُ عَلى هَذا المَبدَأِ كَثيرَةٌ يَطولُ سَردُها، ويكُلِّ حال، فَقَد كانَ أَصحابُ النَّبِيِّ ﷺ عَلى قَلبِ رَجُلٍ واحِدٍ، فَفَتَحَ اُلله عَلَيهِم مِن بَرَكاتِ السَّماءِ والأَرضِ، فَدانَت لَهُم أُمَمُ الشَّرقِ والغَربِ، أَعَزَّهُمُ اُلله بعدَ أَن كانُوا أَذِلَّةً، فَرفَعَ شَأنَهُم وأَعلى قَدرَهُم.

وسارَ عَلى هَذا المِنوالِ أَصحابُ القُرونِ المُفَضَّلَةِ، فَكانُوا خَيرَ أَتباعٍ لِخَيرِ أَصحابٍ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ مُشارَكَةَ المُسلِمينَ، واستِشعارَ ما يَحِلُّ بِهِم مِنَ المُصابِ العَريضِ فِي شَتَّى أَنحاءِ المَعمورَةِ، مِن حَقِّ المُسلِمِ عَلى أَخيهِ.

فَمَرَضُ المُسلِمِ مَرَضٌ لِلجَميعِ، وَفَقرُهُ فَقرٌ لِلجَميعِ، ومَوتُهُ مَوتٌ لِلجَميعِ، كَالجَسَدِ الواحِدِ إِنِ اشتَكَى لَهُ عُضوٌ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢٣).

أَخرَجَ الإِمامُ اللَّالكائِيُّ عَن أَيُّوبَ السِّختيانِيِّ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي أُخبَرُ بِمَوتِ الرَّجُلِ مِن أَهلِ السُّنَّةِ فَكَأَنِّي أفقِدُ بَعضَ أَعضائِي» وأَخرَجَ عَن حَمّادِ بنِ زَيدٍ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «كانَ أَيوبُ يَبلُغُهُ مَوتُ الفَتى مِن أَصحابِ الحَديثِ فَيُرى ذَلِكَ فِيه».

فَإِذا كانَ هَـذا شُعورُهُم عِندَ مَـوتِ الفَتـى والرَّجُلِ العادِيِّ مِن أَهلِ السُّنَّةِ، فَكَيفَ تَكونُ حالُهُم عِندَ مَوتِ أَحدِ عُلَماءِ السُّنَّةِ؟

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

والأَمثِلَةُ عَلى تَرابُطِ المُجتَمَعِ المُسلِمِ كَثيرةٌ، وقَد ضَمَّتْ دَواوينُ التَّأريخِ وكُتُبُ التَّراجِمِ بينَ دَفَّتَيها أَروَعَ الأَمثِلَةِ فِي تَصويرِ التَّكاتُفِ لأَهلِ الإِسْلامِ أَجمَعَ، وكَيفَ كانَ المُجتَمَعُ المُسلِمُ -بِجَميعِ طَبَقاتِهِ- يتأَثَّرُ عِندَ ظُروفٍ مُعَيَّنَةٍ، ويَزدادُ تَفاعُلُ أَفرادِهِ وتَأثُّرُهُم، إِذا كانَ الحَدَثُ يَمَسُّ الجَميعَ، والأمثِلَةُ عَلى تِلكَ القَضايا كَثيرةٌ، ونَكتَفِي بِإيرادِ مِثالٍ واحدٍ لِلتَّقريبِ فَيُقالُ: إِنَّ مِن تِلكَ القَضايا التِي تَهُزُّ كِيانَ المُجتَمَعِ، وتَكونُ حَديثَ السَّاعَةِ فِي وَقتِها وبعدَ وقتِها بِمُدَّةٍ:

قَضيةُ مَوتِ العالِمِ؛ تِلكَ القَضِيةُ التِي تَقُضُّ المَضاجِعَ، وتُهيلُ المَدامِعَ، وكَيفَ لاَ يَكونُ الأمرُ كَذلكَ، وموتُ العالِمِ مَوتٌ لِخَيرٍ كَثيرٍ، فَحياةُ العالِمِ غَنيمةٌ، ومَوتُهُ مُصيبةٌ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَمِنَ الشَّواهِدِ على مُصيبَةِ المُجتَمَعِ فِي مَوتِ العالِمِ: ما رَواهُ النَّقَلَةُ فِي وَصفِ جَنازَةِ الإِمامِ أَحمَدَ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى، فَقَد تَأَثَّرَ النَّاسُ عِندَ مَرَضِهِ، وزادَ تأَثُّرُهُم عِندَ خَبَرِ مَوتِهِ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى، فَقَد جاءَ فِي تَرجَمَتِهِ: أَنَّهُ لَمَّا تَسامَعَ النَّاسُ بِمَرَضِهِ دَخَلُوا عَلَيهِ أَفواجَاً يُسَلِّمونَ عَلَيهِ، فَكَثُرَ الجَمعُ، ثُمَّ أُغلِقَ بابُ الدَّربِ إِلى بَيتِهِ، فَكانَ النَّاسُ فِي

الشَّوارِعِ والمَساجِدِ، حتَّى تَعَطَّلَ الباعَةُ، فَلَمَّا تَرامَتِ الأنباءُ بِمَوتِهِ أَجهَشَتِ الأَصواتُ بِالبُكاءِ.

قَالَ الإمامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى: فَصاحَ النَّاسُ حتَّى كَأَنَّ الدُّنيا قدِ ارتَجَّت، وامتَلأتِ السِّكَكُ وَالشَّوارِعُ.

وقَد وَرَدَ فِي الأَخبارِ: أَنَّ تِلكَ الجِنازَةَ كانت مِن أَعظَمِ جَنائِزِ الإِسْلامِ، فِي كَثرَةِ مَن حَضَرَها وشَيَّعَها، فَقَد تَزاحَمَتِ الجُمُوعُ الغَفيرةُ، وقُدِّرَتِ الأَعدادُ بِمِئاتِ الآلافِ مِنَ المُسلِمينَ، وحَزِنَ الجَميعُ عَلَيهِ، حَتَّى قَالَ عَلِيُّ بنُ حُرَيثٍ: «ما مِن أَهلِ بَيتٍ لَم يَدخُل عَلَيهِم الحُزنُ يَومَ موتِ أحمدَ بنِ حَنبَلٍ إلاَّ بَيتَ سُوءٍ».

كانَت تِلكَ المُصيبَةُ شَديدَةَ الوَقعِ عَلى المُجتَمَعِ المُسلِمِ؛ ودَلِكَ لأَنَّ ذَهابَ العالِمِ خَسارَةٌ عَلى الجَميعِ، وَنَقصٌ واضِحٌ فِي شَأنِ البَلَدِ وأَهلِهِ، إذ إنَّ العالِمَ نُورٌ يُستَضاءُ بِعِلمِهِ، وقَبضُ العُلَماءِ نَذيرُ شَرٍّ، فَبِقَبضِهِم يَقِلُّ العِلمُ، ويَظهَرُ الجَهلُ، ودَلِكَ مِنَ المُصابِ العَظيمِ الذِي يَزيدُ ضَرَرُهُ بِقَدرِ استِشْرائِهِ فِي المُجتَمَعِ.

فَنَسأَلُ اَلله أَن يَحفَظَنا بِحِفظِهِ، وأَن يَتَوَلاَّنا بِرِعايَتِهِ، إنَّهُ تَعَالَى سَميعٌ مُجيبٌ.

الخطبة الثانية

الحَمدُ لِله...

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَإِنَّما كانَ مَوتُ العُلَماءِ مُصيبةً عُظمَى وحَادِثاً جَلَلاً؛ لِما لَهُم مِنَ الأَثَرِ البَليغِ فِي صَلاحِ العِبادِ والبِلادِ.

قالَ الإِمامُ الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى فِي أَثناءِ كَلامِهِ عَن مَقامِ العُلَماءِ: (إِنَّ اَلله – عَزَّ وَجَلَّ وتَقَدَّسَت أَسماؤُهُ- اختَصَّ مِن خَلقِهِ مَن أحَبَّ، فَهَداهُم لِلإِيمانِ، ثُمَّ اختَصَّ مِن سائِرِ المُؤمِنينَ مَن أحَبَّ، فَتَفَضَّلَ عَلَيهِم، فَعَلَّمَهُمُ الكِتابَ والحِكمَةَ، وفَقَّهَهُم فِي الدِّينِ، وعَلَّمَهُمُ التَّأويلَ، وفَضَّلَهُم عَلى سائِرِ المُؤمِنينَ، وذَلِكَ فِي كُلِّ زَمانٍ وأَوَانٍ، رَفَعَهُم بِالعِلمِ، وزَيَّنَهُم بِالحِلمِ، بِهِم يُعرَفُ الحَلالُ مِنَ الحَرامِ، وَالحَقُّ مِنَ الباطِلِ، وَالضَّارُّ مِنَ النَّافِعِ، وَالحَسَنُ مِنَ القَبيحِ، فضْلُهُم عَظيمٌ، وخَطَرُهُم جَزيلٌ، وَرَثَةُ الأَنبياءِ؛ الحِيتانُ فِي البِحارِ لَهُم تَستَغفِرُ، والمَلائِكَةُ بِأَجنِحَتِها لَهُم تَخضَعُ، مَجالِسُهُم تُفيدُ الحِكمَةَ، وبِأَعمالِهِم يَنزَجِرُ أَهلُ الغَفلَةِ.

هُم أَفضَلُ مِنَ العُبَّادِ، وأَعلى دَرجَةً مِنَ الزُّهَّادِ، حَياتُهُم غَنيمةٌ، وَمَوتُهُم مُصيبَةٌ، يُذَكِّرونَ الغافِلَ، ويُعَلِّمونَ الجاهِلَ، لاَ يُتَوَقَّعُ لَهُم بائقَةٌ، وَلاَ يُخافُ مِنهُم غائِلَةٌ، بِحُسنِ تَأدِيبِهِم يَتنازَعُ المُطيعونَ، وبِجَميلِ مَوعِظَتِهِم يَرجِعُ المُقَصِّرونَ، جَميعُ الخَلقِ إِلى عِلمِهِم مُحتاجٌ، والصَّحيحُ عَلى مَن خالَفَ بِقولِهِم مِحجاجٌ.

مَن أَطاعَهُم رَشَدَ، ومَن عَصاهُم عَنَد، مَا أَشكَلَ عَلى قُضاةِ المُسلِمينَ مِن حُكمٍ فَبِقَولِ العُلَماءِ يَحكُمونَ، وعَلَيهِ يُعوِّلونَ، فَهُم سِراجُ العِبادِ، ومَنارُ البِلادِ، وقِوامُ الأُمَّةِ،

ويَنابِيعُ الحِكمَةِ، هُم غَيظُ الشَّيطانِ، بِهِم تَحيا قُلوبُ أَهلِ الحَقِّ، وتَموتُ قُلوبُ أَهلِ الزَّيغِ، مَثَلُهُم فِي الأَرضِ، كَمَثَلِ النُّجومِ فِي السَّماءِ، يُهتَدى بِها فِي ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ، إِذا انطَمَسَت النُّجومُ تَحَيَّروا، وَإِذا أَسفَرَ عَنها الظَّلامُ أَبصَروا) إلخ مَا قَالَ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى.

وقَالَ الإِمامُ القَزوِيني: (اعلَمْ أَنَّ دَرَجَةَ العُلَماءِ مِن أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وكَرامَتَهُم عَظيمةٌ، ولُحُومَهُم مَسمُومَةٌ، مَن شَمَّها مَرِضَ، ومَن أَكَلَها سَقِمَ، وأُوصِيكُم -مَعشَرَ النَّاسِ- بِالعُلَماءِ خَيراً، فَمَن عَظَّمَهُم فَقد عَظَّمَ اَلله سُبحانَهُ وتَعالَى ورَسُولَهُ، ومَن أَهانَهُم فَقد أَهانَ اَلله تَعَالَى ورَسُولَهُ).

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ مِن عَلاماتِ خَيرِيَّةِ المُجتَمَعِ مَعرِفَةَ مَنزِلَةِ العُلَماءِ وَالرُّجوعَ إِلَيهِم عِندَ نُزولِ المُعضِلاتِ، ووُرودِ المُشكِلاتِ، فَلا تَزالُ الأُمَّةُ بِخَيرٍ ما دامَت تَعرِفُ لِلعُلَماءِ فَضلَهُم ومَكانَتَهُم.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَإِنَّ مِمَّا يُحمَدُ لِمُجتَمَعِنا هَذا: مَعرِفَتَهُ لِمَنزِلَةِ عُلمائِهِ، يُصَدِّقُ ذَلِكَ ويُؤَكِّدُهُ مَدى التَّعاطُفِ والتَأَثُّرِ عِندَ حُدوثِ عارِضٍ مَرَضِيٍّ يُصيبُ أَحدَ عُلَمائِهِ، وَأعظَمُ مِن ذَلِكَ مَا يَحدُثُ عِندَ مَوتِ أَحَدِهِم، وبَينَنا وبينَ الحاقِدينَ يومُ الجَنائِزِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

بِالأَمسِ القَريبِ وَضَعَتِ الأُمَّةُ يَدَها عَلى قَلبِها، عِندَما تَرامَتِ الأَنباءُ بِمَرَضِ شَيخِها وَإِمامِها سماحَةِ الشَّيخِ عَبدِالعَزيزِ بنِ بازٍ، ثُمَّ انفَرَجَت أَسارِيرُها بِتواتُرِ الأَنباءِ

بِخُروجِهِ مِن عارِضِهِ الذِي أَلَمَّ بِهِ، وكانَ مَرَضُهُ حَديثَ النَّاسِ، فَلَمَّا تَباشَروا بِشِفائِهِ، قَرَّت أَعيُنُهُم، وزالَ قَلَقُهُم.

وَلَكِن لَمَّا كانَتْ سُنَّةُ اِلله نافِذَةً، وأَمرُهُ واقِعاً؛ قَضَى اُلله أَمراً كانَ مَفعُولاً، ثُمَّ كانت الفاجِعَةُ، فَوَدَّعَت البِلادُ، بَل وَدَّعَتْ أُمَّةُ الإِسلامِ قاطِبَةً شَيخَ الإِسلامِ فِي زَمانِهِ، وَإِمامَ السُّنَّةِ فِي اتِّباعِهِ وسَمْتِهِ ووَقارِهِ، أَجمَعتِ الأُمَّةُ عَلى مَحَبَّتِهِ وقَبُولِهِ، تَمَكَّنَ حُبُّهُ فِي قُلوبِ الصِّغارِ والكِبارِ، والعامَةِ والمُتَعَلِّمينَ.

وهَذا مِن عاجِلِ بُشرَى المُؤمِنِ. إِنَّ القَلبَ لَيَحزَنُ، وَإِنَّ العَينَ لَتَدمَعُ، وَلاَ نَقولُ إِلاَّ ما يُرضِي رَبَّنا، وَإِنَّا عَلى فُراقِكَ يا شَيخَنا لَمَحْزُونُونَ.

اللَّهُمَّ اغفِر لِشَيخِنا وإِمامِنا، اللَّهُمَّ ارفَع دَرَجَتَهُ فِي المَهدِيِّينَ، واخلُفهُ فِي عَقِبِهِ فِي الغابِرينَ، واغفِر لَنا ولَهُ يا رَبَّ العالَمِينَ.

اللَّهُمَّ افسَح لَهُ فِي قَبرِهِ، ونَوِّر لَهُ فِيه، اللَّهُمَّ آجِرنا فِي مُصيبَتِنا وَاخلُف لَنا خَيراً مِنها.

اللَّهُمَّ وَفِّق وُلاةَ أُمورِ المُسلِمينَ إِلى ما فِيهِ صَلاحُ العِبادِ والبِلادِ، اللَّهُمَّ احفَظ عُلَماءَ السُّنَّةِ فِي كُلِّ مَكانٍ، وارفَع رايَتَهُم، وَاكْبِتْ شانِئَهُم وَحاسِدَهُم.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ وَالمُسلِمينَ، اللَّهُمَّ نَجِّ المُستَضعَفينَ، وَفَرِّج كُربَتَهُم.

سُبحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسلامٌ عَلى المُرسَلينَ، والحَمدُ لِله رَبِّ العالَمينَ.